الباب الثالث عشر

في الإنفاق في سبيل اللّه

من عطايا الأمـراء:

يحكى أن الأصمعي عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي المولود في البصرة عام١٢٢هـ والمتوفى عام٢١٦هـ في البصرة ودفن فيها، قال الأصمعي: لزمت هارون الرشيد، فكنت أقيم عليه نهاري، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم، وأتوقع طالع سعد، حتى كدت أموت ضرًّا، وهزالاً، أصير إلى ملالة، ثم أتذكر ما في عاقبة الصبر، من الفرج والفرح ، فأؤمل صلاح حالي باتّفاق محمود فأصبر.

فبينما أنا ذات ليلة وقد قاسيت فيها السهاد والأرق، إذ خرج بعض الحجاب، فقال: هل بالباب أحد يحسن الشعر؟.

فقلت: أالله أكبر، ربّ مضيق فكه التيسير،أنا ذلك الرجل الذي تبحث عنه، فأخذ بيدي وقال: أدخل فإن ختم لك بالسعادة ، فلعلها أن تكون ليلة تقرّ عينك فيها بالغنى.

فقلت: بشرك الله بخير، ودخلت فواجهت الرشيد في البهو جالساً والخدم قيام على رأسه، وجعفر بن يحيى البرمكي جالس إلى جنبه.

فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي، فسلمت على أمير المؤمنين الرشيد، ثم قال: تنحَّ قليلاً حتى تسكن إن كنت وجدت روعة.

فقلت في نفسي: فرصة تفوتني آخر الدهر،إن شغلت بعارض فلا اعتا ض منها إلا الكمد حتى يصفق عليَّ الضريح، فقلت: إضاءة كرم أمير المؤمنين، وبها جدّه يجردان من نظر إليه من أذية النفس، يسألني أيده الله فأجيب ، أو أبتدىء فأصيب؟.

فتبسم جعفر إليّ وقال: ما أحسن ما استدعى الإحسان، وحري به أن يكون محسناً.

ثم قال لي: أشاعر أنت؟ أراد أراوية للشعر؟. قال: لمن؟(قلت لكل ذي جد وهزل، بعد أن يكون محسناً، فقال: أنصف القارة من راماها، ثم قال: ما معنى هذه الكلمة؟.

قلت لها وجهان: زعمت التبابعة أنه كان لها رماة لا تقع سهامها في غير الحد ق، فكان تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته، فنادى أين رماة الحدق؟ فقالت العرب: أنصف القارة من راماها فصارت مثلاً.

والوجه الآخر: الموضع المرتفع من الأرض، والجبل الشاهق ، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه، وما أحسب هذا هو المعنى لأن المراماة كالمعاطاة، وكما أن المعاطاة للنديم، هي أن يأخذ كأساً، ويعطي كأساً، كذلك المراماة أن يرميها وترميه.

فقال جعفر أصبت، فهل رويت للعجاج بن رؤبة شيئاً؟. قلت: الأكثر من شعره، كان العجاج من الشعراء الرجاز، ومن الفصحاء المشهورين، ومن المحتج بأشعارهم في اللغة العربية ، قال: أنشدني قوله:

أرقني طارق هم طرقا: فقلت: نعم فمضيت فيها مضي الجواد، تهدر أشداقي، فلما بلغت مدحه لبني أمية ثنيت عنان اللسان، لامتداحه المنصور.

المنصور: هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عُني بالعلوم من ملوك العرب، وكان عارفاً بالفقه والأدب، والفلسفة والفلك، وكان محبًّا للعلماء، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح عام١٣٦هـ، وهو باني مدينة بغداد. أمر بتخطيطها عام١٤٥هـ، وجعلها دار ملكه، بدلاً من الهاشمية التي بناها السفاح، وزاد في توسعة المسجد الحرام، وفي أيامه بدأت ترجمة علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول إسطرلاب في الإسلام صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري، وكان متَّسماً بالجد والتفكير، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً، توفي محرماً ببئر ميمون من أرض مكة المكرمة عام١٥٨هـ ودفن في الحجون (بمكة المكرمة) عن عمر يناهز ٦٣عاماً، ومدة خلافته (٢٢عاماً).

قال الأصمعي: فلما ثنيت العنان في مدح المنصور، قال: أعن عمد ملت إلى هذا أو عن غير عمد؟.

فقلت : عن عمد تركت كذبه إلى صدقه، بما وصف فيه المنصور من مجده، فقال جعفر بارك الله فيك، مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف، ثم التفت إليّ الرشيد، فقال: أتروي لعدي بن الرقاع شيئاً؟.

ابن الرقاع هو: أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العملي، شاعر دمشقي، كان مقدماً عند بني أمية مدَّاحاً لهم واختص بالوليد بن عبد الملك مات بدمشق عام ٩٥هـ.

فلما قال لي: أتروي شيئاً لعدي بن الرقاع، قلت: الأكثر. قال: أنشدني قوله:

بانت سعاد وأخلفت ميعادها : فبدأت أشداقي تهدر ، فقال جعفر: يا هذا أنشد على مهل فلن تنصرف إلا غانماً، فقال الرشيد: أما إذ قطعت عليّ أقسم لتشركني في الجائزة.

قال الأصمعي: فطابت نفسي فقلت: أفلا ألبس أردية التيه على العرب ، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب ، فتبسم ومضيت فيها، ثم قال: أتروي شيئاً لذي الرّمة؟ قلت: الأكثر، قال أنشدني قوله: أمن حذر الهجران قلبك يطمح.

فقلت: عروس شعره ، قال : فأية الختن؟ قلت قوله يا أمير المؤمنين: ما بال عينيك منها الماء ينسكب.

فقال: إمض فيها، فمضيت فيها حتى انتهيت إلى وصف جمله، فقال جعفر: ضيق علينا ما اتسع من مسامرة الهر بجمل أجرب ، فقال له الرشيد: أسكت فهي التي سلبتك تاج ملكك، وأزعجتك عن قرارك، ثم جعلت جلودها سياطا تضربها أنت وقومك عند الغضب.

فقال جعفر: الحمد لله، عوقبت بغير ذنب ، فقال الرشيد: أخطأت في كلامك، ولو قلت: أستعين بالله، قلت صواباً، إنما يحمد الله تعالى على النعم، ويستعان على الشدائد.

قال الرشيد: ما تراه قال القائل حين أنشده هذا البيت؟

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

قلت: قال كذاك أراد الله، فقال الرشيد: ما كان في جلالته ليقول هذا، أحسبه قال: ما شاء الله، قلت : وكذا جاءت الرواية، فلما أتيت إلى آخرها قال: أتروي لذي الرّمة شيئاً؟ وماذا أراد بقوله؟:

ممر أمرت فتله أسدية ذراعية حلا لة بالمصانع

قلت:وصف حمار وحش أسمنه بقتل روضة تواشجت أصوله وتشابكت فروعه ، من مطر سحابة كانت بنوء الأسد ، ثم في الذراع من ذلك، فقال الرشيد: أرح ،فقد وجدناك ممتعاً، وعرفناك محسناً، ثم قال : أجد ملالة، وهذا جعفر، ضيف عندنا فسامره باقي ليلتك.

ونهض هارون الرشيد، فأخذ الخادم يصلح عقب النعل في رجله، وكانت عربية، فقال الرشيد: عقرتني يا غلام، فقال جعفر: قاتل الله الأعاجم،أما إنها لو كانت سندسية لما احتجت إلى هذه الكلمة.

فقال الرشيد: هذه نعلي ونعل آبائي، كم تعارض فلا تترك من جواب ممض! ثم قال: يا غلام،يؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم لهذا الرجل، في ليلته هذه، ولا يحجب مستأنفاً، أي في المستقبل من الزمان.

فقال جعفر: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين، ولا يأمر فيه غيره، لأمرت لك بمثل ما أمر لك، وقد أمرت لك به إلا ألف درهم، فتلقى الخادم صباحا، فقال الأصمعي: فما صرت من غد إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم.